

نصار عبد الله صوت جديد فى الشعر المصرى

يبرز صوت الشاعر نزار عبد الله متميزا بين شعراء جيله الذين اصطلح على تسميتهم بجيل السبعينيات. فقد استطاع من خلال ثقافة بالغة التنوع أن يبني رؤيته الشعرية عبر مفهوم مركب وعميق للواقع والشعر على حد سواء، كما جاء تشكيله الفنى وثيق الصلة بتراث القصيدة الحديثة ولكنه يمتد بهذا التراث فى اتجاه تطوير الأدوات الفنية بما يلائم مزاج الشاعر وموهبته وثقافته. ولا بد فى البداية من الإشارة إلى الركيزة الثقافية لهذا الشاعر لأنها تؤثر بكل تأكيد فى أعماق تجربته الشعرية فقد درس الاقتصاد والعلوم السياسية ثم درس القانون قبل أن يتخصص فى الفلسفة ولكنه لم يتخل فى كل مراحل دراسته عن النظر إلى نفسه باعتباره شاعرا.. ولعل الشاعر والفيلسوف قد اعتنقا فى وجدانه بحيث أصبح عسيرا علينا أن نعزل أحدهما عن الآخر.. تمثلت تجربة الشاعر نزار عبد الله الشعرية فى عدد من الدواوين. كان ديوانه الأول «الهجرة من الجهات الأربع» مشتركا مع عدد من شعراء جيله ثم جاء ديوانه الثانى مستقلا وهو «قلبى طفل ضال» عام ١٩٧٩م، وصدر ديوانه الثالث «أحزان الأزمنة الأولى» عام ١٩٨١م وأخيرا ديوانه الرابع «سألت وجهه الجميل» عام ١٩٨٥م. ولا نكاد نميز مراحل ذات طابع فنى عبر دواوينه بل إننا نجد نسيجه الشعرى ابتداء من ديوانه

«قلبي طفل ضال» حتى ديوانه الأخير يتخذ ملامح شبيه متجانسة وإن كان النضج والبراءة الفنية وتطوير العناصر الأساسية في تجربته تأخذ مساحة ملحوظة في دواوينه الأخيرة وتتداخل في رؤيته الشعرية أفاق الرومانسية بالتقاطعات الحادة مع الواقع.. ولكن بؤرة عالمه الشعري تظل مسكونة بهذا الهاجس الميتافيزيقي حول الوجود والعدم والحب والكراهية والحلم واليقظة. وما يميز هذا الهاجس الميتافيزيقي عن الرؤية الفلسفية عند غيره من الشعراء أنه يؤسس عالمه على ركائز حائرة من الواقع الذى يتبدى عابرا وشديد التقلب. إن أهم خصائصه الفنية هي الكثافة الإيقاعية والموسيقية التي يجعل منها مهادا لأوجاعه وهو يعرف أن هذه الكثافة ذات جاذبية خاصة فيسرف أحيانا في اللعب بالألفاظ ويفشل أحيانا في إقناعنا بتلقائيته.. يقول في قصيدته «تلك الأيام»:

بينكمو تلك الأيام نداولها
ونغيرها ونقلبها ونبدلها
الخاسر فيكم من يحيا يحملها
ويظل يسير يسائل عن آخرها
آخرها يا أعمى أولها
تلك الأيام بما فيها
لا يأمن قمتها من يحيا فوق أعاليها
لا يلعن سافلها من ضاق به سافلها
فغدا سوف نداولها
تلك الأيام بما فيها
الغانم فيكم...

من داس على فتنتها ومكائدها ولواهبها
من يجعلها تحمله دوما
لا من يحيها دوما يحملها

والشاعر يوحى لنا فى هذه القصيدة بنزعة شبه صوفية ولكنها فى الواقع تعبير عن ولعه المستمر بالجدل حتى لتنبثق المفارقة حادة وكاشفة ومليئة بالدهشة فى معظم قصائده.. إن المفارقة التى تأتى من الملاحظة القوية والعميقة للحركة الجدلية فى المواقف الإنسانية تعد من أبرز الوسائل الأسلوبية عند هذا الشاعر وهو لا يفتعلها وإنما يسوقها فى بساطة شديدة فيثير فيها الدهشة والتعاطف. يقول فى قصيدته «مرثية وجه عدو أليف»:

كان مزيجا من كلمات الحكماء وأفعال الحمقى
وأنا كنت المزج الآخر من كلمات الحمقى وسلوك الحكماء
قال لنا: إن دماء الشهداء
لن تصبح أبدا نهرا من ماء
قال وقاتل بين صفوف الجيش الزاحف لا يدرى
أن الجيش الزاحف جيش الأعداء..

إن تجربة الشاعر نصار عبد الله فى دواوينه تكاد تركز على نوع من التأمل الفلسفى فى هموم الوطن وتحولاته كما تشغله فكرة الموت وتوشك أن تتعادل فى وجدانه مع قضية الحياة ذاتها ذلك لأن الموت يتجسد فى صور بالغة القرب من الشاعر فهو يراه فى أبيه أو أخيه أو أصدقائه أو شهداء الوطن ولا شك أن الحب الذى يرتبط بمفهوم عميق

للجمال يأخذ حظه من هذه التجربة وإن كان لا ينجو هو الآخر من حيرة الفلسفة.. إن حبه يتخذ أشكالاً قاسية فهو مرة يأخذ شكل القطيعة أو سوء الفهم أو الرحيل.. وقد يتبدى في صورة ذكرى لا سبيل إلى استعادة جمالها مرة أخرى.. لهذا نرى الشاعر يبتهل في نشيد عذب كما يحدث في قصيدته «تنوعات على حزن قديم»..

أعدنى ولو بسمة يا إلهي
ولو دمعة فوق خد حبيبي البعيد
أعدنى شعاعاً من الدفء أو غيمة في الشتاء
أعدنى ولو قطعة من جليد
ولو أحرفاً في خطاب شريد
ولو طابعا في سلال البريد
أعدنى فإن المسافات تنهش قلبي
تمزق قلبي وتلقمه للرياح

ولا شك أن الشاعر كان أقرب في ديوانه الثاني «قلبي طفل ضال» إلى العفوية الشعرية وبراءة الدهشة أمام التجارب الأساسية في الحياة مثل الحب والحلم والموت.. ولكن الأيام قد علمت الشاعر كيف يلجأ إلى استخدام حيله الفنية فصارت الصورة الشعرية في دواوينه التالية أقرب إلى الواقع وإلى إدراك الحواس المباشرة كما ساعده التركيز الشديد على تصفية لغته من الاستطرادات التي تمثل عبئاً على كثير من قصائد الشعر الحديث ورغم اقتراب لغته من لغة النثر والإلحاح على السجع القصير إلا أننا لا نفلت أبداً من إسهار جاذبية عالمه الشعري

الذى يتغذى على تراث خصب من الإشارات الثقافية ويصعب تعقب ذات الشاعر والكشف عن مواجعها الخاصة وسط حيله ومرواغاته فهو دائما يصرفك عن تعقبه بالاندماج فى العالم الذى يقوم ببنائه بعناية شديدة بالتفاصيل.. إن ولع الشاعر بالمزاوجة بين الشعر والفكر يجعل من بعض قصائده مجرد صياغة لأفكار عاشت طويلا فى وجدانه دون أن تتجسد فى حدث خارجى أو تجربة روحية.. ولكن وعى الشاعر بهذا الاتجاه فى نفسه يجعله حذرا من الاقتراب الشديد من الأفكار المباشرة وكثيرا ما يلجأ إلى الجمل القصيرة ليحد من فرط الاندفاع فى التأمل كما يعتمد على الإيقاع الجهير كوسيلة لإحياء روح الشعر فى القصيدة، ولا شك أن التركيز يجعل من أحكام العمل الشعرى قريب المنال، ولكنه فى الوقت نفسه لا يعطى انطبعا عميقا بالنمو الفنى للقصيدة بل يوحى دائما بالحذر والوعى والقصد إلى التوقف عند ذروة مدهشة بدلا من التمدادى فى تطوير غير مأمون العواقب.. ولكن بعض التجارب تغلبه فتظهر طبيعة الشاعر أشد عنفوانا وتتدفق الصور الموحية عبر لغة حية مرنة ذات صلة بالحدث مثل قصيدة «الرحيل عن أولا» فى ديوانه «أحزان الأزمنة الأولى» يقول الشاعر نصار عبد الله:

أرحل الآن عن الأرض التى تمزج أحزاني بلون الخضرة والماء
ولون اللفهة الغامض والعشق وتذرونى مع الضوء
قليلًا قليلا وتوارى جرحى الملتاع بكفيها..
وتؤوينى إلى الهدب الوثير..
أرحل الآن عن الأرض التى تنبت فى قلبى زهورا..

لست أدري ما أسمها الآن ولكنى أشم العطر..
إذ ينساب فى الأضلع يجرى مع النبض دماء فى شرايينى..
.. وإذ يتبع خطواتى بأصداء من اللحن الأثير..
أرحل الآن مع الضوء الأخير...

وبعد أن يتحدث الشاعر عن تجربة عاطفية خلفت فى نفسه نورا
وبهجة يعود فى ختام القصيدة إلى قلعة التأمل النفسى فيخاطب الأرض:
أيتها الأرض التى تقتل أحزانا لكى تنجب أحزانا مريرات كثار
ما الذى يولد فى قلبى وماذا يكبر الآن وماذا..
وأنا أرحل الآن مع الضوء الأخير...

إن هذا الصوت الشعرى يمتلىء بالوعود ويقدم صورة للشاعر العصرى
الذى يتكى على ثقافة متنوعة وإخلاص عميق لموهبة شعرية متميزة...

